الأوديسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسيو

خلاصة الفصول السابقة (١) :

« لما وضعت حرب طروادة أوزارها عاد كل القادة اليونانيين إلى أوطانهم إلا أوديسيوس الذى ضل طريقه فى البحر لما كان بينه وبين نبتون من عداء — وقد كانت زوجته بنلوب على قسط وافر من الجمال فطمع فيها كل أمراء بلاده وحاصروا بيتها واستنفدوا خيراته . وكان ابنه تلماك فى طرى العود فلم يقو على نضالهم ولكن منيرفا ربة الحكمة كانت تعطف على والده وتمقت أولئك العشاق ؛ فبدت للفتى فى صورة آدمية ونصحته أن يذهب من فوره الى نسطور ملك پيلوس ومنالايوس ملك أسپرطة ليسألهما عما كان من أمر أبيه — وقد أخرجت معه منيرفا لتحرسه وتسهر عليه . وأكرم الملكان وفادته وقص عليه ملك أسپرطة تنبؤات پروتيوس إله الشاطئ المصرى عما كان من أمر أوديسيوس وما كان من عداوة نبتون اله البحر له . وأنه ما يزال منفيا فى جزيرة كاليبسو — وهال العشاق إبحار تلماك فصمموا على قتله عند عودته وتربصوا له فى البحر بالفعل . »

---

(١) نجتهد بقدر المستطاع أن نلخص جميع الفصول السابقة حتى تتصل الحوادث فى ذهن القارئ الذى ساير الملحمة من أولها ، ولكى يستطيع من لم يسايرها أن يبدأ من أى فصل شاء

هوميروس

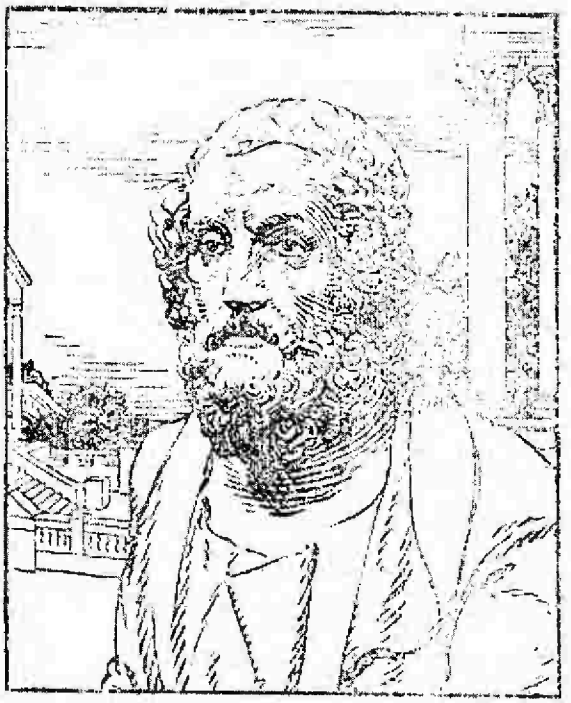

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب (تيتون) فنشرت فى المشرقين غلالة سنية من فيض ضوئها ، بينما كان مجلس الآلهة منعقداً فى ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ، ومينرفا ... ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائمة بين يديه ، تحصى آلام أوديسيوس ، وتبث أشجانه وتصور للآلهة صنوف العذاب التى يتجرع غصصها وحده فى هذه الجزيرة النائية السحيقة ، فتقول :

« أبتاه ! يا سيد أرباب أولمب ! جوف ! اصغ إلى ! وأنتم يا آلهة الخلود ! أعيرونى انتباهة واحدة منكم ، فانها حسبى ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟ ها كم قد أصبح أمر الناس فوضى . . . والطغاة يعيثون فى الأرض مفسدين ، وكأنما أغمضتم أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم ألا تكفوا أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذى طالما منحكم محبته ، والذى بذل لشعبه مهجته ... يثوى اليوم فى تلك الجزيرة الموحشة يجتر همومه ،

ويثير فى صفحة السراب آماله ، .. كلا على كاليبسو عروس الماء ... لا علك سفينة فيقلع إلى الوطن ، ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبثه حزنه ويشتكى إليه لأواءه ... وكأنما لم يكن بحسبه بعض ذلك ، بل تسلط عليه الأقدار القاسية عصبة من الأعداء الألداء يتربصون بابنه الشر ، وينتوون غيلته ، إذ هو عائد من أقصى الأرض .. من أسبرطة وبيلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبراً عن أبيه يشفى فى قلبه غلة ، ويبرىء فى نفسه كاوماً »

ويجيبها رب السحاب الثقال :

« أية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك يا ابنتى ؟ ألست تتشوقين إلى عودة أوديسيوس سالماً آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئنى إذن ، ولتحرسى ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمناً هو الآخر إلى أرض الوطن ، وليبؤ أعداؤه بالفشل »

ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول الآلهة ، فقال :

« هرمز : هلم يا بنى إلى عروس الماء الشقراء كاليبسو برسالاتى ؟ مرها أن ترسل أوديسيوس على رمث[1] وحده ، لا أنيس له من إنس ولا آلهة ، فليلق الأهوال الطوال حتى يصل إلى شيريه أرض الفيشيين ، ملوك البحار وأصهار الآلهة ، فليزودوه بسفينة وزاد وذخيرة من أحمال من ذهب وديباج ، وبكل ما تشتهى نفسه مما يفوق نصيبه الذى حصل عليه من أسلاب إليوم ، لو عاد به غير منقوص إلى أرض الوطن ، ثم ليبحر سالماً إلى إيثاكا ... بذا قضت المقادير أن يؤوب ... وأن يستعيد سلطانه وصولجانه ، وملكه وإيوانه ؛

(١) خشب يضم إلى بعضه ويركب فى البحر Raft

ويلقى بعد طول النأى خلانه »

وأصلح رسول الآلهة الأمين ، هرمز ، نعليه الذهبيتين ، فخفتا به كالريح فوق السحاب وفى يمناه عصاه السحرية العجيبة التى إن شاء داعب بها الجفون فأغفت ، وإن شاء ردها إلى الصحو واليقظة ، وما فتىء يرف بين السماء والماء ، ويدوم فى ذلك الفضاء كالقرنوق[1] الذى يتواثب على أعراف الموج يصيد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يرنق هنا ويرنق هناك حتى اهتدى الى ذلك الكهف السحيق الذى تأوى إليه عروس الماء الشقراء ذات الشعر الكهرمانى وقد جلست ثمة تغرد وتغنى وتعمل دائبة فى منسج أمامها ، ويداها تتلقفان الوشيعة[2] الذهبية كما يخطف البرق ؛ والنار تتأجج فى الموقد بقربها وتتوهج ، وجمر الأرز والصندل يعبق ويتأرج ، ويملأ نشره أركان الجزيرة وفجاجها ... وقد بسقت أشجار الحور والسنديان عند مدخل الكهف فغشته بظلال رائعة ، وظلمة رهيبة ؛ وصنعت جوارح الطير أوكاراً لها فى الدوح الذاهب فى السماء ، ووكنت[3] الحدأة بيضها ، وقر الغداف جنب صفاره ، وطفقت البومة ترسل فى الآفاق صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطىء أفاحيص الطير من كل نوع ؛ وامتدت الكروم عن يمين الكهف وعن شماله مثقلة بالعناقيد ذوات السكر ؛ وتدفقت جداول أربعة من عيون كوثرية تسقى السندس الجميل النضر بأفواف الورد والبنفسج ... منظر

(١) بوزن طنبور وبوزن فردوس طائر مائى (الغطاس)
(٢) المكوك
(٣) رقدت عليه

عجب ، وأى منظرٍ عجبٍ يبعث البهجة والانشراح حتى فى قلوب سكان السماء ! !

ووقف هرمز يُمتّع ناظريه بسحر هذه الجنة ثم دلف الى الكهف ، ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إلـه خالد طرق بابها ، ولو أنها هى أيضاً فرد من أسرة الخالدين . . . ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحياناً ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار ، وانقطاع المزار ... ، ... وأرسل عينيه فى كل شق من شقوق الكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر ... فانثنى ، ويمم نحو الشاطىء واستوى على صخر عظيم ناتىء ، وشرع ينثر من عينيه الدموع الهوالى ، يطفىء بها فى القلب سعيرا سرمديا يلازمه أبد الدهر ... وكأنما عرفت كاليبسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت تسائله ، إذ هى مستوية على عرشها المعرد المظلم :

« هرمز ! يا صاحب العصا السحرية ، يا من طالما أحببته وبجلته ، حدثنى فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت الى هنا . هلم فقل . سل حاجتك فسأقضيها إن تكن فى وسعى ... ولكن هلم أولا ولتؤد لك مراسم القرى وواجبات الضيافة . . . هلم ! »

ومدّت عروس الماء سماطاً حافلا بأشهى ألوان الطعام وصنوف الشراب ، وأقبل هرمز فاغتذى وروِىَ من هذه المائدة القدسية ، ثم توجه بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى ما أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولمب وكبير الآلهة ، هو الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لإلـه فى هذه القطعة المنعزلة من الأرض ، يحيط بها الملح من كل مكان حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقيمون الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ، يقول إنك تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الكبير الذى نزح عن بلاده الى إليوم فقضى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها فى العاشرة مع محاربى هيلاس الذين تفرقوا فى البحر شذر مذر ، فمنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل الى بلاده ... إلا إياه ... فقد هلك كل رجاله ، وقذفه البحر فوق جزيرتك النائية . . . جوف يأمرك أن ترديه ، ففى كتاب القادر أنه لا يهلك هنا ... بل يعود الى بلاده ويلاقى فيها آله »

وزلزلت كاليبسو زلزالا وقالت تجيبه : « ها ... الظلم والحسد ... دائما ... هذا دأبكم يا آلهة ... كم تأكل قلوبكم الغيرة كلما ضمت ربة الى ذراعيها أحد بنى الموتى ! وهل نسيتم يوم ثرتم عندما علقت ديانا ذات الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون كيف دبت الغيرة فى قلب أبوللو فمكر هذا المكر السيء ، ودبر قتل الفتى بيدى حبيبته ديانا ! ؟[1] هل نسيتم أيضاً كيف أرسل أبوكم جوف إحدى صواعقه على أياسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته وأخذته بين ذراعيها حين شغفها حباً ؟ ! كذلك أنتم معى اليوم ، وكذلك أنتم غيورون دائما ، فما أقساكم إذ تنفسون على

(١) تراجم الأوديسة التى بأيدينا مبهمة فى الكلام عن هذه الأسطورة لذلك اضطررنا أن نتصرف قليلا اعتماداً على شرح الأستاذ جرير — وخلاصتها أن أبوللو علم بما بين أخته ديانا وأوريون من عشق فاستدرج ديانا وأخذ يباريها فى الرماية — وكان أوريون يستحم فى البحر فجعلها تصوب سهمها إلى رأسه وهى لا تدرى فقتلته

حبيبي ؟ ! لقد أنقذته بنفسي من هذا اليم الذي التقم سفينته بمن فيها حين شطرها أبوكم بسهمه في عبثة من عبثاته ! حبيبي الذي أهواه من أعماق وأفتديه بروحي ، والذي أمهد له حياة الخلود . . . ولكن ... واأسفاه ! كيف أطرده من عندي ؟ ويحي ! إن تكن هذه مشيئة زيوس فلأحدثن أوديسيوس ليرى لنفسه ، إذ ليس عندي مركب يأمن فيه غائلة هذا البحر المضطرب ، وإني ناصحة له . . . »

وكلها هرمز فأنذرها من غضبة سيد الأولمب وحضها أن تعمل على إبحار البطل

* * *

ورف هرمز الرسول في لازورد السماء وانطلقت عروس الماء تبحث في الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهما واجما ، تفرى قلبه الهواجس ، ويعبث به محال الأماني ، وقد انهمرت فوق خديه عبرات حرار ! واللحظات تذبل فتسقط من حياته في ظلام اليأس كأوراق الخريف وقد مل هذا المقام الطويل البائس في جوار عروس الماء ! تلك التي تخلع عليه حبها البارد ، وتقسره على أن يقضي لياليه بجانبها على فراش واحد في ذلك الكهف السحيق ... وكلما فكر في وطنه ، ونظر الى الموج المتواثب في أفق اليم ، وعرف أن لا قدرة له عليه ... بكى وأن ، وتوجع وتصدع ، وأرسل في لا نهاية الماء والسماء آهات وآهات ... »

واقتربت منه عروس الماء في رفق وحدب ، وقالت له :

« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تعهر حياتك الغالية في تنور من الآلام ، هلم ... هيا إلى عمل مجيد .. أمامك الدوح المظيم والأيك الذاهب اقطع منه ما شئت واصنع لنفسك رمثاً يحملك فوق هذا العباب المتلاطم . وسأزودك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب جديدة تقيك الحر والبرد ؛ وسأسخر لك الريح تهدهدك الى بلدك البعيد . . . هذا قضاء من آلهة السماء التي تقدر فتعدل ، وتقضي فلا رد لها قضاء . »

وتفزع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال :

« أوه يا عروس ! بل في الأمر سر تحاولين إخفاءه عني . . . أي رمث يحملني في ذلك البحر اللجي وأي ريح تسخرين من أجلي ؟ وإن السفينة العظيمة لتمخر عبابه وهي لا تدري أتسلم أم يكون أهلها من المغرقين ؟ لا ... لن أفعل حتى تعطيني موثقك ، وحتى تقسمي القسم العظيم ، أنك لا تبطنين لي شراً ولا أذى ! »

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهي تقول :

« ويحك ! كيف تسيء بي الظن يا أوديسيوس ؟ أية حجة تملأ بها يديك على ما قلت ؟ ولكن اصغ إلى ... أقسم لك بقسم الآلهة في الأرض والسماء والدار الآخرة ... بالقسم العظيم الذي يقشعر لذكره كل شيء ... أني لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى ... إن الذي تبكي من أجله ، أبكي أنا أضعاف ما تبكي من مثله ، فلقد كنت ضرورة من ضرورات حياتي هنا ، ولقد تعلق بك قلبي ، وهامت بحبك نفسي ، وليس قلبي من صخر فيحتمل البعد عنك بله الأضرار بك »

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذي كان يجلس عليه هرمز منذ هنيهة ، ثم أقبل جواري الماء يحملان شيئاً كثيراً من اللحم والشراب فأكلا وروياً ؛ ثم شرعت كاليبسو تحدثه وتقول :

« أهكذا يا ابن ليرتيس العظيم ، أيها الحكيم الصناع ، لا تفتأ تحن إلى وطنك وتعتزم الرحيل اليه ؛ أنا عذيرك يا أوديسيوس ... فوداعاً ! ولكن هل فكرت أيها الرجل في الأهوال الجسام التي تخرط قتادها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبي ، وتقاسمني كهفي ، فتصبح من الخالدين ... وتنسى هذا الجمال الفاني الذي لا ينفك يصبيك ويسبيك ، والذي أحسب جمالي وفتنتي لا يقلان عنه سحراً إن لم يزيدا عليه فتوناً ؟! »

فيجيبها أوديسيوس الحكيم : « أيتها الربة المخوفة ! هوّني حفيظتك ! أنا أعلم أن بنلوبي العزيزة لا تزن من جمالك وفتونك مثقالا ، لأنها هالكة ، ولأنك من الخالدين . بيد أن الذي يصبيني هو وطني ... وطني الحبيب الذي أحن إليه وأهيم به ، وفي سبيل العودة إليه لن يخيفني هذا اللج المتلاطم ، فلقد بلوت الأعاصير في البر والبحر ؛ في غبار المعمعة ؛ وفي الفلك تحت كلاكل الزوبعة ... إليّ إليّ يا خطوب ، وأقدمي بكل حولك يا رزايا ... »

* * *

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة ، ونامت الربة في سريرها الوثير وبين ذراعيها حبيبها تشمه وتضمه ، وتحسه وتلثمه ... حتى إذا نضّرت بالورد أورورا جبين المشرق ، هب الإلفان وتدثرا ؛ هذا بثوبه الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة التي كأنما نسجت من نسمات الصباح المطرى ، وراحت تخطر فينانة ريانة ، وقد اتشحت حول وسطها النحيل بقرطق جميل ، وألقت على رأسها بخمار صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدهما كالساطور ، ركبت فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلا حاداً مرهفاً ... وسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مُخْرَوْرِف ، لاحبة شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشربين[(١)] ، وتركته ثمة وعادت أدراجها إلى كهفها ...

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة ... ثم أقبلت كاليبسو وقد حملت إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لأي أن يضم بعض الجذوع الى بعض ثم كلّبها بكلاّبات كبار ، وأفرغ في وسط الرمث له ولما يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون ... ودعم ذلك جميعاً بألواح ودُسر ، وصنع قلعاً وجعل في القاع شراعاً ، ثم سوى السكان مكانه ، وجعل في الباطن صبارة[(٢)] كبيرة تقي الرمث الانقلاب ، ولم ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد في قوته وتضاعف من مُنته . وأتم صنع مركبه في أربعة أيام ، وأنزله الى البحر في الخامس ؛ ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور ، وخلعت عليه حلة من ديباج ثمين وزودته بزقين من خمر وماء ، وأمدته بشيء كثير من طعام وأثواب

(١) Fir ولم نجد لهذه اللفظة أثراً في اللسان والقاموس

(٢) أو صبرة قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركب في البحر وتسمى في مصر (صابورة)

وودع عروس الماء المحزونة ؛ وجلس عند السكان ، ثم دفع الرمث فى البحر ، وابتعد رويداً رويداً

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يمتلىء بالانشراح ... وظل يجرى به الفلك الصغير سبعة عشر يوماً ، وعيناه فى كل ليل ما تريمان عن الثريا فى علياء السماء ، وما تفتران تنظران الى نجوم الدب الأكبر التى تقف للجبار[1] بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح ، أن يجعل هذا النجم الى شماله أبداً

ثم بدت جبال فيشيا الشم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض الشاحبة ... ولكن ! وا أسفا ! ... لقد كان الجبار نبتيون ثانياً عنانه من سوليما[2] ، فلمح أوديسيوس فوق رمثه يتواثب على هام الموج ، ويقترب من الشاطىء ، فينجو إلى الأبد من بطشه ... وثارت فى نفس نبتيون — إله البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس — ثورة من الغضب ، وظل يملك هذه الكلمات فى نفسه من فوق بطاح إثيوبيا[3] :

« وى ! أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس ، فقضوا فيه ما قضوا لأنهم يسكنون السماء ، ولم يبالوا بى لأنى أسكن الأرض فى إثيوبيا ؟ ... إنه يرى شاطىء فيشيا قيد وثبات منه وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم تترصده فى كل موجة من موج هذا اليم ... ولكن ... لا ... لألهينه بألف سوط عذاب قبل أن يصل الى البر ... »

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث فانعقدت منه ظلمات فى أرجاء السماء ، وطفق يعد يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صيحة برياح المشرقين ورياح المغربين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق ... ثم هبت ريح الشمال الثاجية اللافحة فانطفأ لألاء النهار ، وناء الليل فجأة ، وطغى العباب وشابت نواصيه بالثبيج ، وتناوح الموج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا : « يا التعاسة ! أى مقدار قاس يترصدنى ؟ ! لقد أنذرتنى ربة الماء مغبة هذه الرحلة الهوجاء فى البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التى تعتور طريقى إلى الوطن ، فها هى ذى تتحقق ! أية أعاصير هوج وأى موج ينتفض من الأعماق ساط جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص فى ظلمة هذه القبور التى يشقق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار إليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثا فى سبيل إنقاذ الأتريدس[1] أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جثة أخيل ! ! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجلى الطقوس الجنائزية ، وأديت لى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عبراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التى تكاد تلتقمنى ! »

ثم كانت الطامة ... فان موجة كالطود فجأته ... فبعثرت الرمث ... وأفلت مقبض السكان من يدى أوديسيوس ، فانتثر فى اللجة ، ثم غاص فى أعماقها ، وعبثا حاول أن يطفو ... لأن الرياح تكالبت من

(١) الجوزاء Orion

(٢) إحدى مقاطعات آسيا الصغرى وكانت تدعى بيسيديا

(٣) هكذا فى الأصل

(١) هو أجاممنون

كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاها أخرى ... ثم حدثت المعجزة ... فقد وسعه بعد لأى وبعد عناء شديد أن يدفع نفسه دفعة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رئتيه المنهوكتين بتنفسة من الهواء ، كانت تمتزج بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يغص بها ... لولا أن لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد انتزعت العاصفة قلاعه وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه الموج تلعب به واحدة وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح عن شماله ويمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قيض له القدر عروس الماء (إينو) إبنة قدموس ، التى كانت تعيش فى البر وتعرف فيه بهذا الاسم ، والتى تحذت اسم (ليوكوتيا) بعد أن نزلت إلى البحر وعلقها أحد الآلهة فوهبها الخلود ... لقد تفجرت فى قلبها شآبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رأته فى هذا الروع الذى ليس كمثله روع ، فسحرت نفسها ووثبت على الرمث فى صورة غطاس الماء ، ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غضبة نبتيون عليك حتى ليتبعك سربا فى شعاب البحر ، ويصب عليك كل تلك الرزايا ... ؟ على أننى أنصح لك أن تدع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز فى الماء ، وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطئان فيشيا ، حيث تسلم بنفسك ، وتكون بمأمن من بطش هذا الجبار . خذ ، هاك زناراً من حرير من حياكة السماء ، لُفَّه تحت صدرك ، فانه يجعلك بمأمن حتى من مجرد التفكير فى الموت ؛ فاذا وصلت ساحلاً إلى الشاطىء ، فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً فى البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط فى الماء »

وسلمت إليه زنارها الموعود ، ثم غاصت فى الماء ، وبقى أوديسيوس مكانه فى حيرة شديدة وحزن عميق ؛ ثم أفاق من غشيته ، وجعل يهرف هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لى ؟ ولكن لا ... لن أبرح مقيما فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكانى مادامت الجذوع مُكلبَة هكذا ، فاذا حطمتها يد الحدثان فلأعمان كما أشار الآله الذى كان يكلمنى منذ لحظة ... » .

وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفة حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح ... وأسرع أوديسيوس نخلع الرداء الجميل الديباجى الذى خلعته عليه كالبسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقذف بنفسه فى الماء ... وراح يسبح !

وكان نبتيون الجبار يرى بعينيه ، ويشفى حَردَه ، ويقول فى نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس وبال أمرك فى هذا الطوفان ، قبل أن تصل حبالك بحبال الشعب الذى هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهى آلامك ! »

وحثّ مطيّه حتى وصل (إيجه) حيث يشرف قصره المنيف

* * *

وكانت مينرفا تشهد الكفاح الهائل بين أوديسيوس وبين اليم ، فاطلعت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استنامت وونت ، ثم أطلقت بوريس ، ريح الصبا الشمالى الكريم فجرى[1] رخاءً ، يدفع أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل الموت ويصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين

(١) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر

أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطىء على مرمى البصر ، من فوق موجة عالية

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ! لقد كان ينظر أوديسيوس إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة الناعمة فى أحيادها ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكته العلة . . . ثم تماثل للشفاء بعد تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه . . . ولكن . . . وا أسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأوادى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيرغى ويزبد ... !

لم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تجوس خلالها سفن . . . ولقد ظل أوديسيوس يكافح ويكافح ... حتى غم على قلبه ، وكاد يتغشاه طائف من الخور ، بعد أمل أكيد !

وجاشت الوساوس فى قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهلك فى هذه اللجة الرجراج ...

وكان أخوف ما يخشاه أن يدفعه الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفتريت ، زوج نپتيون ، عدوه اللدود ، إله البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به الى أعمق الأعماق ... كرة أخرى

وبينا هو فى بحرين من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه فى قوة وعنف الى الشاطىء ذى النتوء والنؤى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة ... وثمة ظل معلقا حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله الى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء . . . وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من خلفه فقذفه فى مسيل من مسايل الماء المنتشرة على الشاطىء ، وعندها ، ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذى كاد يسلمه بدوره للمحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل ... ويدعو من أعماق قلبه ويصلى ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فكسر حدة التيار ، وفلّ من غرب الماء واستطاع البائس المنهوك أن يصل الى إحدى المدوتين واهياً متهالكا محطما . . فانطرح على الثرى يقبله . . ويلهث ويقول :

« ويح نفسى ماذا تبتغين يا آلام ! لقد أقبل الليل وأنا عيى مصدّع ، ولا قبل لهذه البقية من حشاشتى بطل المشاة وصقيع الفجر . . . فلو أننى استطعت أن أتسلق هذا الحدور فألوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولكن ! وَىْ ! أى وحش ضار يغتذى بلحمى ثمة ؟ »

بَيْد أنه توقل فى الجبل حتى أوشك أن يضرب فى الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مثمرة ، والأخرى عقيم ؛ كل منهما لفّاء شجراء حتى لا تنفذ الريح بينهما ، ولا تتسرق أشعة الشمس خلالها ، ولا الماء بواصل إلى من استذرى بهما هناك ... وجد أوديسيوس مأمنه ؛ .. فراح يمهد الأرض ، ويلم ما استطاع من قش ويحتطب حتى صنع لنفسه منامة تكفى اثنين غيره ، من الضاربين المشردين فى الأرض ، ودعم حفافيها بفروع الشجر ... ثم أسلم عينيه لنوم هادىء عميق ، سكبته مينرفا فى كلتا مقلتيه

فلله ما كان أروعه غاراً فى هذا السفط من القش ، كشعلة من زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يعتز بها ربى شاب فى قرار مكين[1]

(يتبع) دريني خشبة

(١) كانت النار فى الزمن القديم أغلى ما يعتز به الناس